نحو الانحراف والجمود

ومضت سنون ، وخلف بعد علماء البلاغة البلغاءِ خلفٌ أضاعوا الأصالة ، ولم يدركوا مكانة الذوق والحسّ في البلاغة ، وفي تقويم آيات الجمال الأدبي ، كان معظم هؤلاء من علماء البلاغة ، ولكنهم لم يكونوا بلغاء في أنفسهم ، ولم يكونوا متذوّقين ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوّقوها ، فجرّدوا من آثار سلفهم ما يتصل بالأحكام والقواعد ، ثم صنّفوا ذلك مستعينين عليه ، كل بحسب ثقافته ؛ بالفلسفة والكلام والمنطق ...، وفرّعوا وقسّموا حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية — في معظم الأحيان — مما كانت به بلاغة ؛ جاءت مجرّدة من أسباب الحياة ، جافة لا روح فيها ، معقّدة لا (بيان) يوضحها ، مقيّدة بالحدود ، وإذا هي غادرتها فإلى جدل فلسفي لا أثر للبلاغة الحيّة فيه .

وكان مما زاد في إساءتهم إلى البلاغة إسهام أدباء عصورهم ؛ بما أمدّوهم به من أدب هزيل وذوق سقيم .